بسم الله الرحمن الرحيم

رَدُّ طعن الأشعري ، في أبي عَبْد اللهِ ابن بطَّة العُكبري

عَبْد العزيز بن فيصل الرَّاجحي

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خاتم الأنبياءِ والمرسلين ، نبيِّنا مُحَمَّدٍ ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، وبَعْدُ : فقد أطلعني الأخُ الشَّيخُ سُليمان بن صالح الخراشي على ما كتبَـهُ الـدُّكتور صلاحُ الدِّين بن أحمد بن سَعِيد الإدلبيّ ، في«الوقفة الثَّامنة والثَّلاثين»(ص٢٤٨-٢٥١)، مِن كتابـه «عقائد الأشاعرة»(ط١ ، عام ١٤٣٣هـ، عن دار الفتح بالأردن)، في طعنِه في الإمام أبي عَبْد الله ابنِ بطَّة (ت٣٨٧هـ) رضي الله عنه ، وردِّهِ على الشَّيخ سُليمان ، ما استدلَّ به مِن كلامي في كتـابي «قَمْـع الدَّجاجلة» في الذَّبِّ عنه .

وهذِه عادة مَعْروفة ، وسُنَّة مَعْلومة ، أَنْ يطعنَ الأشقياء ، في الأئمَّة الأتقياء ، وينالُ الأطراف ، مِن السَّادة الأشراف ، لكنَّها حِكْمةٌ مِن رَبِّ العالمين عظيمة ، ورحمة مِنْ لَدُنْهُ كريمة ، أَنْ يُبْقي لهم مِن الأجور ، ما يسير معهم مَسِيرَ الأيَّام والعصور ، يُؤْذَونَ في سبيلِه ، ويُنالُ منهم لنُصْرةِ دينه ، ألا ترى أَنَّ أعظمَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم جميعًا ، هم أعظمُ المُنَالِ مِن أعراضِهم ، مِن ذَوِي الكُفْرِ والزَّندقـةِ والنِّفاق ، وأَنَّهُ بعُلُوِّ قدر المؤمنين ، يكون عَدَاءُ المُلْحدين والفاسقين والمُبْطلين .

ولولا أنَّ صاحب الكتاب المذكور ، ذَكَرَ أَمْرًا لم يذكرْهُ سابقُه المردودُ عليه في «القَمْـع»، لم أَرُدَّ عليه ، لكنَّه ذَكَرَ أمرًا جديدًا ، فناسبَ الرَّدُّ عليه ، وإبطالُ زَعْمِه ، سائقًا كلامَهُ تامًّـا دُونَ اختـصار ، لِئَلَّا يَظُنَّ في شيءٍ أغفلتُه - اختصارًا - حُجَّةً له ، مُستعينًا باللهِ جلَّ وعلا ، وعليه اعتمادي .

قال الدُّكتورُ الإدلبيُّ (ص٢٤٨-٢٥١):(كنتُ قد ذكرتُ في كتاب «عقائد الأشـاعرة» ، مِـن الحنابلة المجروحين ، عُبيدَ الله بنَ مُحَمَّد ابن بطَّة العكبري ، المتوفى سنة ٣٨٧هـ ، وقولَ ابن حجـر : «وقد وقفتُ لابنِ بطةَ على أمرٍ استعظمتُه ، واقشعرَّ جلدي منه».

كما ذكرتُ روايةَ ابنِ بطة لحديث «كلَّم اللهُ تعالى موسى يَوْمَ كلَّمَهُ ، وعليه جُبَّـةُ صُـوفٍ ، وَكِـسَاءُ صُوفٍ ، ونعلانِ مِن جلدِ حمارٍ غير ذكي ، فقال : مَنْ ذا العبرانيُّ الذي يُكلِّمني مِن الشَّجرة ؟ قال : أنا الله».

ثُمَّ ذكرتُ تعليقَ ابن حجر بقولِهِ :«وما أدري ما أقولُ في ابن بطَّة بعد هذا ؟ واللهُ أعلمُ بغيبِه».

وقلتُ : وهذا يعني أَنَّ ابنَ بطَّةَ رُبَّما وَضَعَ هذه الزِّيادة ، وأدرجها في الحديث ، وهـي مُوافقـة لمشربِهِ ، الذي فيه مَيْلٌ للتَّجسيم والتَّشبيه .

اطَّلعتُ على الرِّسالة المشار إليها (يَعْني «قَمْعَ الدَّجاجلة») مِن الباحث الثاني (يَعْني الخراشي)، لعَلِّي أجدُ فيها شيئًا مِن العِلْم ، وبَعْدَ الاطلاعِ عليها ، تبيَّن أَنَّها على غَيْرِ مليءٍ .

قال الشَّيخُ المُحالُ عليهِ (يَعْنيني بـذلك ، وينقـل مِـن كتـابي «قَمْـع الدَّجاجلـة» ص٢٥٧-٢٥٨):«الحديث قد رواه مع ابنِ بطَّة ، جماعةٌ مِن الحُفَّاظ والعُلماء غـيره ، فقـد رواه ابـنُ بطَّـةَ عـن إسماعيل بن مُحمَّد الصَّفَّار عن الحسن بن عرفة عن خلف بن خَلِيفة عن حُمَيد الأعرج عن عَبْد الله بن الحارث عن عَبْد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنَّهُ قال : قال النَّبيُّ ﷺ :«كَلَّـمَ اللهُ تعـالى موسـى يَـوْمَ كلَّمَهُ ، وعليهِ جُبَّةُ صُوْفٍ ، وكساءُ صُوْفٍ» ، الحديثَ .

وقد رواه البيهقي في«الأسماءِ والصِّفات» عن جماعةٍ مِن شيوخه عن إسماعيل بن مُحمَّد الصَّفَّار - وهو شيخ ابن بطَّة - به .

وهذا الحديثُ كذلك في«جزء الحَسَن بن عرفة العَبْدي» المشهور ، بسنده الذي ذكَرَهُ ابنُ بطَّـة دُونَ تغييرٍ ولا تبديل . وهو جُزْءٌ متواترٌ عن الحَسَن بن عرفة قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ ابنُ بطَّة .

كما رواه التِّرمذيُّ في«سُنَنِه» عن علي بن حُجْر عن خلف بن خليفة به .

وهذا الحديثُ حديثٌ مُعَلٌّ بحُمَيْد بن علي الأعرج ، ومع هذا فقد رواه الحاكمُ في«مُـستدركه على الصَّحيحَيْنِ» مِن طريق خلف بن خليفة به».

أقول (القائلُ الإدلبيُّ): كلامُ الشَّيخِ المُحالِ عليه في تخريج هذا الحديث ، بَعِيدٌ عن الصَّواب ، إِذْ لا يُمَيِّزُ المتنَ المرويَّ بالزِّيادة ، عمَّا رُوِيَ بدونها ، وهذا يجعل بحثَهُ بعيـدًا كُـلَّ البُعْـدِ ، عـن إدراك السَّبب الذي مِن أجلِهِ ، يُوَجَّهُ الاتِّهامُ فيهِ لابنِ بطَّة .

هذا الحديثُ رُوِيَ بدُونِ الزِّيادة التي في آخرِه ، ورُوِيَ بالزِّيادة :

فأَمَّا بدُونِ الزِّيادة : فرواه سَعِيدُ بن منصور في «السُّنَن» و«التَّفسير» [التَّفسير جُزْءٌ مِن «السُّنَن» لا غيرَها] ، والتِّرمذيُّ ، والبَزَّار ، وعَبْدُ الله بن أحمد في «السُّنَّةِ» ، وأبو يَعْلَى ، وابنُ جَرِير في «تفسيره» ، والعُقيلي في «الضُّعفاء» ، والحاكم ، مِن طُرُقٍ عن خلف بن خليفة عن حُمَيْدٍ الأعرج عن عَبْد الله بن الحارث عن ابن مَسْعود عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال : «يَوْمَ كلَّمَ اللهُ موسى عليه السَّلام ، كان عليه جُبَّةُ صُوفٍ ، وكساءُ صُوفٍ ، وسراويلُ صُوفٍ ، وكُمَّةُ صُوفٍ ، ونعلانِ مِن جلدِ حمارٍ غَيرِ ذَكِيٍّ» .

حُميد الأعرج ، كوفيٌّ ضعيفٌ متروكٌ ، وليس هو حُميدا الأعرج المكي الثقة .

ورواه الحَسَنُ بن عرفة في «جزئه» عن خلف بن خليفة به بحُرُوفِهِ ، وقدَّم «السراويل» على «الكساء» .

وكذا رواه الآجريُّ في «الشَّريعة» عن الحسن بن علي الجصاص ، ومحمدِ بن مخلد العطار .

ورواه البَيْهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» عن جماعة ، منهم : أبو عليٍّ الروذباريُّ عن إسماعيل بن محمد الصَّفَّار ثلاثتهم عن الحَسَن بن عرفة به .

وأَمَّا بالزِّيادة : فقد رواه ابنُ الجوزي في «الموضوعات» قال : «أنبأنا علي بن عُبَيْد الله الزَّاغوني قال : أنبأنا علي بن أحمد ابن البُسْري قال : أنبأنا أبو عبد الله ابن بَطَّة قال : حدثنا إسماعيل بن محمد الصَّفَّار قال : حدثنا الحَسَن بن عرفة قال : حدثنا خلف بن خليفة» ، فذكره بزيادةٍ في آخره ، وهي «فقال : مَنْ ذا العبرانيُّ الذي يُكَلِّمني مِن هذه الشَّجرة ؟ قال : أنا اللهُ» .

وهو في «الإبانة» لابنِ بطَّة ، قال : «حدثنا إسماعيل بن محمد الصَّفَّار ، وأبو محمد الحسن بن علي بن زيد بن حميد قالا : حدثنا الحَسَن بن عرفة به» .

الحسن بن علي بن زيد بن حميد ، روى أحاديث مُستقيمة تَدُلُّ على صدقِه ، ومات سنة ٣٢٥ ، كما في «تاريخ بغداد» .

فالحديثُ بدون الزِّيادة التي في آخره ، ضعيفُ الإسنادِ جِدًّا .

والزِّيادةُ التي جاءتْ في آخر الحديث ، وهي «فقال : مَنْ ذا العبرانيُّ الذي يُكَلِّمني مِن هذه الشَّجرة ؟ قال : أنا الله» : مُنكرةٌ موضوعةٌ ، وقد تفرَّدَ بها ابنُ بطَّة ، وليس في السَّنَد مَنْ يُتَّهَمُ بها غَيْرُه .

وهذا هو الذي جَعَلَ ابنَ حجر يقول : «وقد وقفتُ لابنِ بَطَّةَ على أمرٍ استعظمتُه ، واقشعرَّ جلدي منه ، وما أدري ما أقولُ في ابنِ بطَّةَ بعد هذا ؟ والله أعلمُ بغَيْبِهِ» .

أَمَّا الشَّيخُ المُحالُ عليه (يعنيني بذلك)، مِن قِبَلِ الباحث الثاني : فقد أبان بكلامِه ودفاعِه عن ابنِ بطَّة ، أَنَّهُ بعيدٌ كُلَّ البُعْدِ عن إدراك وجهِ اتِّهامِه بهذه الرِّواية .

وقولُه «وقد رواه مع ابنِ بطَّة جماعةٌ مِن الحُفَّاظ والعُلماء غيره»: قَوْلٌ مُخالِفٌ للحقيقة ، لأَنَّهم رووه بدون الزِّيادة التي تفرَّد بها ابنُ بطَّة ، وهو مُتَّهَمٌ بالزِّيادة ، لا بأصل الحديث .

وقولُه «وهذا الحديث كذلك في«جُزءِ الحَسَن بن عرفة» بسنده الذي ذكرَهُ ابنُ بطَّةَ دون تغيير ولا تبديل»: هو بخلاف الحقيقة كذلك ، إِذْ ليس فيه الزِّيادة التي تفرَّد بها ابنُ بطَّة ، فَلِمَ يقول هذا الشَّيخُ هنا «دون تغيير ولا تبديل» ؟!

هل يُريد أَنْ يُوْهِمَ القُرَّاءَ ، بأَنَّ رواية الحَسَن بن عرفة في«جُزْئِه» ، هي كما رواه ابنُ بطَّة دون وقوع أيِّ تغيير أو تبديل في ألفاظ الرِّواية ؟! لا أدري ، والله أعلم .

والخلاصةُ هي أَنَّ ابنَ بَطَّة ، قد تفرَّد بتلك الزِّيادة المُنكرة الموضوعة ، وأَنَّهُ أضعفُ الرُّواة في ذلك السَّنَد ، وأَنَّه هو المُتَّهمُ بها ، سواءٌ أكان ذلك عَمْدًا أو سهوًا . وهي تُذَكِّرُنا بما رواه مُسلِمَةُ أهل الكتاب في تكليم الله تعالى لموسى عليه السَّلام) انتهى كلام الدُّكتور الإدلبيّ بطوله .

وجوابُ كلامِه هذا في وقفات :

إحداها : أَنَّ نقلَه السَّابق عنِّي ، كان في ردِّي على حسن بن فرحان المالكي ، حين اتَّهم ابنَ بطَّة بوَضْعِ حديث ابن مسعود السَّابق ، وتغييره في إسنادِهِ لِتُظَنَّ صِحَّتُه ، ظانًّا أنَّ قولَهُ «وعليهِ جُبَّةُ صُوفٍ ، وعِمامَةُ صُوفٍ» عائدٌ على اللهِ جلَّ وعلا ، وأَنَّ ذلك مِن جُملة تجسيم ابن بطَّة ، وظَنَّ أنَّ هذا هو ما استنكرَهُ ابنُ حجر ، واقشعرَّ جلدُه منه !

فرددتُ عليهِ :

١ - بأَنَّ الضَّمير عائدٌ على موسى عليه السَّلام ، فلا إشكالَ حينئذٍ .

٢ - وأَنَّ هذا الحديث لم ينفردْ بِهِ ابنُ بطَّةَ لِيُتَّهَمَ بوضعِه ، أو تغيير شيءٍ مِن إسنادِه ، بل رواهُ الأئمَّةُ معه ، وكان حديثًا مُشتهرا قبل أَنْ يُخْلَقَ رحمه الله . فكان الرَّدُّ صحيحًا مُناسبًا لزَعْمِ المالكي .

الثَّانية : أَنَّ أبا عَبْدِ اللهِ ابنَ بطَّة إمامٌ جليلٌ ، ثقة في دينه ، صادق مأمون ، وإنْ كان في حفظه شيء ، كما هو حال كثير مِن حُفَّاظ الحديث وحَمَلَتِه ، فلكثرةِ ما رووه وتحمَّلوه حِفْظًا ، وتحديثِهم عن

ظهر قَلْبٍ ، قد يُخطئُ أحدُهم في لفظِ حديثٍ ، أو في تسميةِ رَاوٍ ، فيستدركه عليه الأئمَّة ، ويُبيِّنونه ، فيبقى الدِّينُ سالمًا ، وتبقى مكانةُ أئمَّتِه ساميةً .

وقد روى ابنُ بطَّةَ رحمه الله مئاتِ الأحاديث والآثار ، مَلأَتْ كتابَـهُ «الإبانـة الكـبرى» ، فـما استدلَّ على عقيدتِهِ رحمه الله ، عقيدةِ أئمَّة الإسلام إلا بكتابِ اللهِ ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وكلامِ الأئمَّة ، لم يختلقْ شَيْئًا وحاشاه .

الثَّالثة : أَنَّ ما نقلَهُ الدُّكتورُ الإدلبيُّ مِن كلامي ، كان لا صلةَ له برَدِّ زعمِه ،إِذْ لم يَكُنْ كتابي في الرَّدِّ عليه ، لكنَّهُ أغفلَ عَمْدًا ، نَقْلَ ما له صلةٌ مِن كلامي في الرَّدِّ عليه !

فقد أسقط مِنْ نقلِه الطَّويل عنِّي سطرَيْنِ مُهِمَّيْنِ ! وهما نقلي (ص٢٥٨) عن ابن حِبَّان قَوْلَهُ في حُميد الأعرج :(مُنْكَرُ الحديث جدًّا ، يروي عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود ، بنُسْخَةٍ كأنَّهـا موضوعة ، لا يُحْتَجُّ بخبره إذا انفرد) اهـ .

والحديثُ المذكورُ ، هو مِن هذه النُّسخة .

فَإِنْ قال الإدلبيُّ : أغفلتُه لأنَّهُ غَيرُ ذِي صلةٍ بالموضوع ، فَإِنَّ ابنَ بطَّةَ هو المتفرِّدُ بالزِّيادة المُنكرة ؟

قلنا له : قد نقلتَ كلامي بطُولِه ، وأنت تراهُ كُلَّهُ غَيرَ ذي صلة ! فما أوجبَ نَقْلَ ذاك ، يُوجِبُ نَقْلَ هذا !

ولو أراد ابنُ بطَّةَ – وحاشاه – أَنْ يضعَ حديثًا ، أو يزيدَ في حديث لفظًـا ، لـزاد في أحاديـثَ ذواتِ أسانيدَ جياد !

كما أَنَّ الإدلبيَّ ، أغفلَ مِن نقلِه الطَّويل عنِّي ، كلامَ الأئمَّةِ في ثنائِهم على ابنِ بطَّة ، فقد وَصَفَهُ **الحافظُ أبو عَبْدِ اللهِ الذَّهبيُّ** رحمه الله – وهو إمامٌ شافعيٌّ كبير – في«سير أعلام النُّبلاء»(١٦/ ٥٢٩): بالإمام ، القُدوة ، العابد ، الفقيه ، المُحدِّث ، شَيْخ العراق .

وذكَرَهُ الحافظُ رَشِيدُ الدِّين العطَّار رحمه الله (ت٦٦٢هـ)، مِنْ جُملَةِ الحُفَّـاظ والأكـابر الـذين رَوَوْا عن أبي القاسم البَغَوي ، في كتابهِ «نُزهة النَّاظر ، في ذِكْرِ مَنْ حدَّث عن أبي القاسم البغوي مِن الحُفَّاظ والأكابر»(ص٩٢)، فقال فيه :(فَقِيهٌ ، جَلِيلٌ ، زاهدٌ ، مُصنِّفٌ ، حدَّث «بمُعْجَم البغوي» عَنْهُ ، لكن تكلَّم فيه الخطيبُ وغيرُه) اهـ .

وقَوْلَ الذَّهبيِّ (ت٧٤٨هـ) في «السِّير»: (لابنِ بطَّةَ مع فضلِه، أوهامٌ وغَلَط).

ونَقْلَ الذَّهبيِّ عن الخَطِيبِ (ت٤٦٣هـ) قَوْلَهُ: (حدَّثني أبو حامد الدلوي قال: «لمَّا رَجَعَ ابنُ بطَّة مِن الرِّحْلةِ، لازمَ بيتَهُ أربعين سنةً، لم يُرَ في سُوقٍ، ولا رُؤِيَ مُفطرًا إلَّا في عيد، وكان أمَّارًا بالمعروف، لم يبلغْهُ خَبَرُ مُنْكَرٍ إلَّا غيَّرَه») اهـ.

وقَوْلَ الحافظ ابن حَجَرٍ (ت٨٥٢هـ) في «لسان الميزان» (٤/ ١٣١-١٣٢) فيهِ: (إمامٌ، لكنَّهُ ذُو أوهامٍ).

ثُمَّ قال رحمه الله: (ومع قِلَّةِ إتقان ابن بطَّةَ في الرِّواية، كان إمامًا في السُّنَّةِ، إمامًا في الفقهِ، صاحبَ أحوالٍ، وإجابةِ دعوةٍ رضي الله عنه).

ثُمَّ نَقَلَ عن الإمام أبي الفَتْح يُوسُف بن عُمَر بن مَسْرور القَوَّاسِ (ت٣٨٥هـ) رحمه الله قَوْلَهُ: (ذكرتُ لأبي سعيدٍ الإسماعيليِّ ابنَ بطَّة، وعِلْمَهُ وزُهْدَهُ، فخرجَ إليه، فلمَّا عادَ قال لي: «هُوَ فَوْقَ الوَصْفِ»).

وهذا كُلُّهُ قد أغفلَهُ الإدلبيُّ مع صلتِه بالموضوع، فَإِنَّ إمامةَ ابنِ بطَّةَ، وعدالتَهُ، وديانتَهُ، وتعظيمَ الأئمَّةِ له، ومكانتَهُ عندهم، مُنافِيَةٌ لزعمِه الخبيثِ، بالطَّعنِ فيه، بوَضْعِ تلك الزِّيادة!

فَنَقَلَ هو ما يراهُ غَيرَ ذي صِلَةٍ بنَقْضِ كلامِه، ثُمَّ زعم أَنَّ ردِّي بَعِيد!

الرَّابعة: أَنَّ زيادة (مَنْ ذا العبرانيُّ الذي يُكَلِّمني مِن الشَّجرة؟ قال: أنا الله) في أثر ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، لا تُوجِبُ الطَّعنَ في عدالةِ رَاوٍ عَدْلٍ، وتكذيبه، ولها مثيلاتٌ كثيرةٌ عند الحُفَّاظ.

- فإمَّا أَنْ تكون زيادةَ ثقةٍ مقبولةٍ، لو كان إسنادُ الحديثِ سالمًا مِن علَّتِهِ الأصليَّةِ، وهو حُمَيد الأعرج.
- أو تكونَ زيادةً شاذَّةً مَرْدودةً.

الخامسة: أَنَّ سِرَّ استعظامِ هَؤُلاءِ لأثر ابن مسعود، وقُشَعْريرةِ جُلُودِهم منه، وقَطْعِهم ببُطلانِه، هو مُخالفتُه عقائدَهم، المُخالفةَ لاعتقاد أئمَّة الإسلام، القائمةَ على موازين المُتكلِّمين، أتباعِ ملاحدة الفلاسفة المشَّائين، مُعطِّلي الرَّحمن عن أفعاله سبحانه، فهو عند الأشاعرةِ لا يتكلَّم، ولم يتكلَّم، ولن يتكلَّم، لِئَلَّا يُشابِهَ المخلوقين! وإنَّما كلامُه مَعْنًى واحدٌ قائمٌ بذاته جلَّ وعلا! يُسَمُّونَهُ «الكلامَ النَّفسيَّ»! ألهمَهُ اللهُ جلَّ وعلا جبريلَ فعبَّر عنه، وسَمِعَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ منه، أو ألهمَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فعبَّرَ عنه بالعربيَّةِ فكان قرآنا، وحِينَ عبَّر عنه موسى بالعبرانيَّةِ كان توراة، وعيسى بالسريانيَّةِ كان إنجيلا!

فلم تسمعِ الملائكةُ منه شيئًا حقيقةً ، ولا أنبياؤه المُكلَّمُونَ ، ولا يَسْمَعُهُ في جنَّاتِ النَّعيمِ المُؤمنون ، ومنزلةُ الجميع عندهم ، بمَنْزلة مَنْ قال اللهُ جلَّ وعلا فيهم : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ !

وليس كلامُه جَلَّ وعلا عِندَهم بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ ، ولا يُوصَفُ بجَهْرٍ ولا سِرٍّ ، إذْ كُلُّها مِن صفاتِ الحوادث المُنَزَّهِ عنها جلَّ وعلا ! مُعرِضِينَ عن الوحي وحقيقتِه ، وكلامِ أئمَّة الإسلام وصراحتِه ، مُستدلِّينَ ببيتٍ مَنْسوبٍ للأخطل النَّصراني !

إنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيْلَا

مع أَنَّ علَّتهم في نفي حقيقةِ كلامِ اللهِ جلَّ وعلا بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، مُتحقِّقةٌ فيما زعموا ثبوتَهُ ، وسعوا - تنزيهًا - في إثباتِه ، فإِنَّ ما أثبتوه للخالقِ مِن الكلامِ النَّفسيِّ ، يُشارِكُه المخلوقُ فيه ، فلَهُ كلامٌ نفسيٌّ ! ودليلُه بَيْتُ الأخطلِ نفسُه ، فإِنَّهُ مُخبِرٌ في بيتِه بحالِ المخلوقين لا خالقِهم .

بل إنْ كان في إثباتِ كلامِ اللهِ حقيقةً ، بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، مُشابهةٌ لكَمَلَةِ المخلوقين ، فإثباتُهم هم للكلامِ النَّفسيِّ ، فيه مُشابهةٌ لكَمَلَةِ المخلوقين ، وقاصريهم بالخَرَس !

قال العِزُّ ابنُ عبد السَّلام (ت٦٦٠هـ) - وهو أشعريٌّ - في عقيدتِه «مُلحةِ الاعتقاد» (ص١٢) في صفات اللهِ جلَّ وعلا : (مُتكلِّمٌ بكلامٍ قديمٍ أزليٍّ ، ليس بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ ، ولا يُتَصَوَّرُ في كلامِه أَنْ ينقلبَ مدادًا في اللَّوحِ والأوراق ، شَكْلاً ترمقُه العيونُ والأحداقُ ، كما زعم أهلُ الحَشْوِ والنِّفاق . بل الكتابةُ مِن أفعال العباد ، ولا يُتَصَوَّرُ مِن أفعالهم أَنْ تكونَ قديمةً ، ويجبُ احترامُها لدلالتِها على ذاته ، كما يجبُ احترامُ أسمائِه ، لدَلالتِها على ذاته).

وقال إبراهيمُ بنُ محمَّد الباجوريُّ (ت١٢٧٦هـ) - وهو أشعريٌّ - في «تحفة المُريد ، شرح جوهرة التَّوحيد» ، في كلام اللهِ جلَّ وعلا (ص١٢٩-١٣٠):(صفةٌ أزليَّةٌ قائمةٌ بذاتِهِ تعالى ، ليستْ بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ ، مُنزَّهةٌ عن التَّقدُّم والتَّأخُّر والإعراب والبناء ، ومُنزَّهةٌ عن السُّكوتِ النَّفسيِّ ، بأَنْ لا يُدبِّرَ في نفسِه الكلامَ مع القدرة عليه ، ومُنزَّهةٌ عن الآفة الباطنيَّة ، بأَنْ لا يقدرَ على ذلك ، كما في حال الخَرَسِ والطُّفوليَّة).

فَصْلٌ

وهلاكُ هؤلاءِ عند آيات الصِّفات وأحاديثِها، واستنكارُهم لها، وفتنتُهم بها، قديمٌ مَعْروفٌ.

أخرجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ في«مُصنَّفه»(١١/ ٤٢٣-٤٢٤): عن مَعْمر عن همَّام بن مُنبِّهٍ أَنَّه سَمِعَ أبا هُريرة رضي الله عنه يقول: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تحاجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ.

فقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالْمُتكبِّرين والْمُتجبِّرين.

وقالتِ الجَنَّةُ: فما لي لا يدخلني إلَّا ضعفاءُ النَّاسِ، وسَقَطُهم، وغِرَّتُهم؟

فقالَ اللهُ للجنَّةِ: إنَّما أنتِ رحمتي، أرحمُ بكِ مَنْ أشاء.

وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عذابي، أُعَذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِن عبادي، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلْؤُها.

فأَمَّا النَّارُ، فإنَّهم يُلْقَوْنَ فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾، فلا تمتلئُ حتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ - أو قال: قَدَمَهُ - فيها، فتقول: قَطِ قَطِ قَطِ، فهنالك تُمْلأُ، وتَنْزَوي بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلمُ اللهُ مِنْ خَلْقِه أحدًا. وأَمَّا الجنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لها ما شاءَ».

ثُمَّ قال مَعْمرٌ: وأخبرني أيُّوبُ عن ابن سيرين عن أبي هُرَيرةَ عن النَّبيِّ ﷺ مِثلَه.

ثُمَّ قال مَعْمرٌ: عن ابنِ طَاوُوس عن أبيه قال: سَمِعْتُ رَجُلاً يُحَدِّثُ ابنَ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما بحَدِيثِ أبي هُرَيرةَ هذا، فقَامَ رَجُلٌ فانتفضَ!

فقال ابنُ عبَّاسٍ: «ما فَرَقَ من هؤلاءِ، يَجِدُّونَ عِندَ مُحكمِه، ويَهْلِكُونَ عند مُتشابِهه».

وهذِه كلُّها أسانيدُ صحاحٌ.

وحَدِيثُ أبي هُرَيرة رضي الله عنه هذا: أخرجَهُ الإمامُ أحمد في«مُسندِه»(٢/ ٣١٤)، والبُخاريُّ في «صحيحه»(٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

وأخرجَهُ مِن حَدِيث أنس بن مالك رضي الله عنه: الإمامُ أحمدُ في«مُسنده» (٣/ ١٣٤و١٤١ و٢٣٠-٢٣١و٢٣٤و٢٧٩)، والبُخاريُّ في«صحيحه»(٤٨٤٨)، و(٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨)، والتِّرمذيُّ في«جامعِه»(٣٢٧٢).

وأخرجَهُ مِن حَدِيث أبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه: الإمامُ أحمدُ في«مُسندِه»(٣/ ٧٩)، ومسلم في «صحيحه»(٢٨٤٧).

ولَمَّا سَمِعُوا قولَ اللهِ جلَّ وعلا ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾، وكانتْ آيةً مُحْكَمَةً، لا حديثًا يتَّهمون راويَهُ العَدْلَ بالكذبِ والوضع ! وإفسادُه بالمجازاتِ والتَّأويلاتِ غَيرُ مُمكِنٍ لمن عَرَفَ اللِّسانَ العربيَّ المُبين : عَمَدَ عَمْرُو بنُ عُبَيد، زعيمُهم القديمُ، إلى أبي عَمْرٍو ابن العلاء، القارئ الإمام العظيم، وطلب منه جَهْلاً بكتاب اللهِ، أَنْ يقرأ الآيةَ بنَصْبِ لَفْظِ الجلالة لتكونَ (وكلَّمَ اللهَ مُوسَى تكليمًا) !

فقال له أبو عَمْرٍو : فكيف تصنعُ بقَوْلِهِ جلَّ وعلا ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ !

ذكَرَها جماعةٌ مِن أهل العلم، منهم : شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة في«بيان تلبيس الجهميَّة» (٣/ ٣٠٣)، وابنُ أبي العِزِّ الحنفيُّ في«شرح العقيدة الطَّحَاويَّة»(١/ ١٧٧).

فطردوا فيها حينئذٍ المجازاتِ والتَّأويلات، وحرَّفوا المعاني، إذْ لا سبيلَ إلى تحريف المباني !

قال الفَخْرُ الرَّازيُّ (ت٦٠٦هـ) في«تفسيرِه»(١٤/ ٢٣٨):(قالتِ الأشعريَّةُ :«إنَّ مُوسى عليه السَّلام، سَمِعَ تلك الصِّفَةَ الحقيقيَّةَ الأزليَّةَ». قالوا :«وكما لا يتعذَّرُ رُؤيةُ ذاتِه، مع أَنَّ ذاتَهُ ليستْ جسمًا ولا عَرَضًا، فكذلك لا يَبْعُدُ سماعُ كلامِه، مع أَنَّ كلامه لا يكونُ حَرْفًا ولا صَوْتًا».

وقال أبو منصورٍ الماتريديُّ (ت٣٣٣هـ):«الذي سَمِعَهُ موسى عليه السَّلام، أصواتٌ مُقطَّعةٌ، وحُرُوفٌ مُؤلَّفةٌ، قائمةٌ بالشَّجرةِ. فأَمَّا الصِّفَةُ الأزليَّةُ، التي ليستْ بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ، فذاك ما سَمِعَهُ موسى عليه السَّلام ألبتةَ) اهـ.

وقال الرَّازي (٢٢/ ١٦):(قال الأشعريُّ : «إنَّ اللهَ تعالى أسمعَهُ الكلامَ القديمَ، الَّذي ليس بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ». وأَمَّا المعتزلةُ : فإنَّهم أنكروا وُجُودَ ذلك الكلام، فقالوا :«إنَّه سبحانه خَلَقَ ذلك النِّداءَ في جسمٍ مِن الأجسام، كالشَّجرةِ أو غَيرِها، لأَنَّ النِّداءَ كلامُ اللهِ تعالى، واللهُ قادرٌ عليه، ومتى شاءَ فعلَه».

وأَمَّا أهلُ السُّنَّةِ مِن أهل ما وراءَ النَّهر [يعني الماتريديَّة] : فقد أثبتوا الكلامَ القديمَ، إلَّا أنَّهم زعموا أَنَّ الذي سَمِعَهُ موسى عليه السَّلام، صَوْتٌ خلقَهُ اللهُ تعالى في الشَّجرة، واحتجُّوا بالآية على أنَّ المسموعَ هُوَ الصَّوتُ المُحْدَثُ، قالوا :«إنَّه تعالى رتَّبَ النِّداءَ على أنَّهُ أتى النَّار، والمُرَتَّبُ على المُحْدَثِ مُحْدَثٌ، فالنِّداءُ مُحْدَثٌ»).

ونَقضُ هذا يَسِيرٌ ، وإنْ لم يكن هذا موضعَهُ :

○ فَإِنَّ قياسَ إمكان سماعِ كلام اللهِ الأزليِّ بزعمِهم في الدُّنيا ، بإمكانِ رُؤية اللهِ عزَّ وجلَّ في الآخرة : باطلٌ . بل نتيجة القياس لو صحَّتْ مُقدِّماتُه ، المَنْعُ مِن سماع كلامِ اللهِ الأزليِّ في الدُّنيا ، بامتناعِ رُؤيتِه سُبحانه في الدُّنيا .

○ وزَعْمُهم أَنَّ اللهَ أسمعَ نبيَّهُ مُوسَى كلامَهُ القديمَ ، الذي ليس بحَرْفٍ ولا صَوْتٍ : باطلٌ مثلُه ، فالكلامُ المسموعُ هُوَ ما كان بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، وقد أخبرَنا اللهُ بكلامِه لموسى صِدْقًا وعَدْلاً ، فقال : ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ .

وما عَسَى مُوسَى أَنْ يُبَلِّغَ النَّاسَ ! وكيف يكونُ مُبَلِّغًا ما أمرَهُ ربُّه بِهِ ، وهو يُبلِّغُهم كلامَ نفسِه وقولَها ، لا كلامَ ربِّهِ وقولَهُ ، و ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾.

ومع اجتهاد الرَّازيِّ أَنْ يصرفَ الآيةَ عن ظاهرِها ، ويُبْطِلَ حقيقتَها ، إلَّا أنَّه استشعرَ ضَعْفَ ذلك ، فاعتضدَ بما ليس بمُعْتَضَد ، فقال (١١/ ١١١) عند قَوْلِه تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾:(وعن إبراهيم ، ويحيى بن وثَّاب أنَّهما قرآ «وَكَلَّمَ اللهَ» بالنَّصبِ) ! اهـ .

فذَكَرَ قراءةً شاذَّةً ، نصَّ على شذوذِها الأئمَّةُ ، كابنِ خالويه في«شواذ القراءات»(ص٣٦)، فليستْ حُجَّةً ، وليس فيها حُجَّةٌ ، فتكليمُ اللهِ لموسى عليه السَّلام ، قطعيٌّ ثابتٌ فيها وفي غيرها ، إِلَّا أَنَّ المُفلِسَ يستكثرُ بالقليل ، ويعتمد على ما ليس عليه تعويل .

قال الحافظُ أبو بكر أحمدُ بن مُوسَى بن مردويه رحمه الله (ت٤١٠هـ):(حدَّثنا أحمدُ بنُ محمَّد بن سُليمان المالكيُّ حدَّثنا مَسِيحُ بنُ حاتم حدَّثنا عبدُ الجبَّار بنُ عَبْدِ اللهِ قال : جاءَ رَجُلٌ إلى أبي بَكْرِ ابنِ عيَّاش فقال : سَمِعْتُ رَجُلاً يقرأ «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْليمًا» ؟

فقال أبو بَكْرٍ : ما قرأ هذا إلَّا كافر ، قرأتُ على الأعمشِ ، وقرأ الأعمشُ على يحيى بن وثَّاب ، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبد الرَّحمن السُّلَميِّ ، وقرأ أبو عبد الرَّحمن السُّلَميُّ على عليِّ بنِ أبي طالب ، وقرأ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه على رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾).

نقلَهُ ابنُ كَثِيرٍ في «تفسيرِه» ، ثُمَّ قال :(وإنَّما اشتدَّ غَضَبُ أبي بَكْرٍ ابنِ عيَّاشٍ رحمه الله على مَنْ قَرَأَ كذلك ، لأَنَّهُ حرَّف القُرآنَ ومعناه ، وكان هذا مِن المعتزلة ، يُنكِرُونَ أَنْ يكونَ اللهُ كلَّمَ مُوسى عليه السَّلام ، أو يُكَلِّمَ أحدًا مِن خلقه .

كما رويناه عن بَعْضِ المعتزلة : أَنَّهُ قرأ على بعض المشايخ «وكلَّمَ اللهَ مُوسَى تكليمًا».

فقال له : يا ابنَ اللخناء ! كيف تصنعُ بقوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ؟!

يعني أَنَّ هذا لا يحتمل التَّحريفَ ، ولا التَّأويل) انتهى .

إلَّا أَنَّ مُبْلِسًا آخرَ أعجبتْهُ تلك القراءة فأيَّدَها ، ظانًّا أنَّها هي ما في الباب ! فقال :(يشهدُ لهذه القراءة ، قَولُه جلَّ وعزَّ حكايةً عن مُوسَى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، وغيرُه مِن الآي التي فيها كلامُه للهِ تعالى) اهـ .

وغَفَلَ عن إتمامِها ، فلو تدبَّرها لأبطلتْ مزاعمَهُ ، قال سُبحانه :﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ .

ومنزلةُ مُوسَى عليه السَّلام عند هذا المخذولِ حينئذٍ مِن ربِّهِ ، واصطفاؤُه له بكلامِه ، كسائرِ مَنْ ناجى رَبَّهُ ودعاه ! وما مِنْ نبيٍّ ، بل ولا مُؤمنٍ إلَّا وقد ناجى رَبَّهُ ودعاه ، فهم جميعًا مشاركون لموسى عليه السَّلام في ذي الفضيلة ، بل قد شاركَهُ عليه السَّلام فيها المشركون ، وسائرُ المجرمين ، الذين أخبرَ اللهُ عنهم بمُناجاتِهم له ، ودُعائِهم إيَّاه ، في مثل قَولِه سُبحانه ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ !

قال أبو بكرٍ الخلَّالُ (ت٣١١هـ) في«السُّنَّة»:(أخبرني عليُّ بنُ عيسى أَنَّ حنبلاً حدَّثهم قال : سَمِعْتُ أبا عبد الله [يَعْني الإمامَ أحمدَ بنَ حنبل] يقولُ :«مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لم يُكَلِّمْ مُوسَى ، فقد كَفَرَ باللهِ ، وكذَّبَ القُرآنَ ، وردَّ على رَسُول اللهِ ﷺ أمرَهُ . يُستتابُ مِن هذه المقالة ، فَإِنْ تاب ، وإلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُه».

قال : وسَمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ قـال :«﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، فأثبـت الكـلام لموسـى ، كرامـةً مِنـهُ لموسى ، ثُمَّ قال تعالى يُؤكِّدُ كلامَهُ ﴿تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾».

قُلتُ لأبي عَبْدِ اللهِ : اللهُ عزَّ وجلَّ يُكَلِّمُ عَبْدَهُ يَومَ القيامة ؟

قال :«نعم ، فمَنْ يقضي بين الخلائقِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ ؟ يُكَلِّمُ عبدَهُ ، ويسألُهُ .

اللهُ مُتكلِّمٌ ، لم يزلِ اللهُ يأمرُ بما يشاءُ وَيَحْكُمُ ، وليس له عِدْلٌ ولا مِثْلٌ ، كَيفَ شَاءَ ، وأنَّى شاء»).

قال الخلَّالُ :(أخبرنا محمَّدُ بنُ عليِّ بن بحر أَنَّ يعقوبَ بنَ بُختان حدَّثهم أَنَّ أبا عَبْـدِ اللهِ سُـئِلَ عمَّن زعم أَنَّ اللهَ لم يتكلَّمْ بصَوْتٍ ؟

فقال :«بلى ، تكلَّم بصَوْتٍ ، وهذِه الأحاديثُ كما جاءتْنرويها ، لكُلِّ حديثٍ وَجْهٌ ، يُريدون أَنْ يُمَوِّهُوا على النَّاس ، مَنْ زعم أَنَّ اللهَ لم يُكَلِّمْ موسى فهو كافر .

حدَّثنا عبدُ الرَّحمن بنُ محمَّد المحاربيُّ عن الأعمش عن مُسلم عن مَسْروقٍ عن عَبْدِ اللهِ يعني ابنَ مسعودٍ قال :«إذا تكلَّمَ اللهُ بالوحي ، سَمِعَ صَوْتَه أهلُ السَّماءِ ، فيَخِـرُّونَ سُـجَّدًا ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ قال : سَكَنَ عن قلوبِهم ، نَادَى أهلُ السَّماءِ ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، قَالَ : كَذَا وَكَذَا».

قال الخلَّالُ : وأنبأنا أبو بكرٍ المروزيُّ : سَمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ ، وقِيلَ لَـهُ : إنَّ عبـدَ الوهَّـاب قـد تكلَّم وقال : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ كلَّمَ مُوسَى بلا صَوْتٍ ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، عَدُوٌّ للهِ ، وعَدُوٌّ للإسلام .

فتبسَّمَ أبو عَبْدِ اللهِ ، وقال : ما أحسنَ ما قال عافاه الله)، نقلَها شَيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة في«دَرْءِ تعارض العقل والنَّقل»(٢/ ٣٧-٣٩).

السَّادسة : أَنَّ جناية ابنِ بطَّةَ في كتابِهِ ، الموجبةَ تكذيبَهُ ، ورَدَّ حديثِه ، ورميَهُ بالوَضْعِ ، والمَيْـلِ إلى التَّشبيه والتَّجسيم ، مُتحقِّقةٌ في أئمَّة الإسلام ، وحُفَّاظ الحـديث ومُـصنَّفاتهم . فإمَّـا أَنْ يُكَـذَّبَ الجميعُ ويُضَلَّلُوا ، والعِلَّةُ واحدةٌ . وإمَّا أَنْ يُسْقِطَ تلك الحُجَّةَ الشَّيطانيَّة ، الموزونةَ بالموازين الوثنيَّة .

فقد أجمعَ أئمَّةُ الإسلام ، بِأَنَّ كلامَ اللهِ جلَّ وعلا كلامٌ حقيقيٌّ كما أخبرَ جـلَّ وعـلا ، بحَـرْفٍ وصَوْتٍ ، تَسْمَعُهُ منه الملائكة ، وسَمِعَهُ منه أنبياؤُه المُكلَّمُونَ ، ويَسْمَعُهُ منه عبادُه المؤمنون ، تكـريمًا لهم وتشريفًا ، ويسألُهم في الجنَّة حقيقةً عمَّا يُريدونَـهُ مِـن إكـرام ، فيُجيـبُهم بالرِّضـوان . ويُخاطِـبُ الأشقياءَ فيقول لهم : ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾، فيُخاطِبُونَهُ بائسين ، فَلَـمْ يَـسْعَدُوا

باتِّباعِ وَحْيٍ ، ولا بمُتابعةِ نبيٍّ ، وإنَّما كانوا عن كُلِّ ذلك مُعرضِـينَ :﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾.

أخرج البُخاريُّ في«صحيحِه»(٧٤٨٣)، و(٤٧٤١) عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال : قال النَّبيُّ ﷺ :

(يقولُ اللهُ : يا آدَمُ .

فيقولُ : لبَّيْكَ وسَعْدَيك .

فيُنادِي بصَوْتٍ : إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إلى النَّار).

قال الحافظُ ابنُ حجر بَعْدَهُ في«فتح الباري»:(«فيُنادِي»: مضبوطًا للأكثر بكَسْرِ الـدَّالِ . وفي رواية أبي ذَرٍّ : بفَتْحِهَا على البناءِ للمجهول).

وأخرجَ البُخاريُّ رحمه الله في«صحيحه»(٤٨٠٠) عن أبي هريرة : أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :(إذا قضى اللهُ الأَمْرَ في السَّماءِ ، ضربتِ الملائكةُ بأجنحتِها خُضْعَانًا لقَوْلِهِ ، كأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عـلى صَـفْوَانٍ . فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ﴾ لِلَّذِي قَالَ ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾).

وأخرجَهُ البُخاريُّ في«خَلْق أفعال العِبَاد»(٤٨٥)، والتِّرمذيُّ في«جامعه»(٣٢٢٣)، وأبو داوود في «سُنَنِه»(٣٩٨٩)، وابنُ ماجَهْ في«سُنَنِه»(١٩٤)، والحُميديُّ في«مُسندِه»(١١٨٥)، وابنُ أبي شَـيْبة في «العَرْش»(٨٠)، وابنُ جَريرٍ في«تفسيرِه»(١٩/ ٢٧٧)، وابنُ خُزيمة في«التَّوحيد»(٢١٢)، وابنُ حِبَّان في«صحيحِه»(٣٦)، وابنُ مَنْدَه في«الإيـمان»(٧٠٠)، و«التَّوحيـد»(٦٢٢)، واللالكـائيُّ في«الـسُّنَّةِ» (٥٤٦)، والبَيْهقيُّ في«الأسماء والصِّفات»(٤٣١)، و«دلائل النُّبوَّة»(٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

وقال البُخاريُّ في«صحيحه» في«كتاب التَّوحيد»:(ويُذْكَرُ عن جابر عن عبد اللهِ بن أُنَيْس قال : سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ :(يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ ، فيُنادِيهم بصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ ، كما يَسْمَعُهُ مَـنْ قَـرُبَ «أَنَا الملكُ ، أنا الدَّيَّان»).

وأخرجَهُ البُخاريُّ بسنده في«الأدب المُفرَد»(٩٧٠)، وفي«خَلْق أفعال العبـاد»(٤٨٠)، وقـال (ص٢٤٠):(وأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنادِي بصَوْتٍ ، يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ ، كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ ، فلـيس هـذا لِغَيْرِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُه).

ثُمَّ قال (ص٢٤٠):(وفي هذا دليلٌ على أَنَّ صَوْتَ اللهِ لا يُشْبِهُ صـوتَ الخَلْـقِ ، لِأَنَّ صَـوْتَ اللهِ ،

يُسْمَعُ مِنْ بُعْدٍ ، كما يُسْمَعُ مِنْ قُرْبٍ ، وأَنَّ الملائكةَ يُصْعَقُونَ مِنْ صَوْتِه ، فإذا تنادَى الملائكةُ لم يُصعَقوا).

وأخرجَ حديثَ عَبْدِ اللهِ بن أُنَيس أيضًا : الإمامُ أحمدُ في«مُسندِه»(٣/ ٤٩٥)، وابنُ أبي شَيْبة في «مُسندِه»(٨٥١)، وابنُ أبي عاصم في«السُّنَّةِ»(٥١٤)، والحارثُ في«مُسندِه»(٤٤)، والحاكمُ في «مُستدركِه»(٢/ ٤٣٧-٤٣٨)، و(٤/ ٥٧٤)، والبَيْهقيُّ في«الأسماءِ والصِّفات»(١٣١)، وجماعات .

وأخرجَ البُخاريُّ في«صحيحِه»(٦٥٤٩)، و(٧٥١٨): عن أبي سَعِيدٍ الخدريَّ رضي الله عنه قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ :«إِنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقولُ لأهلِ الجَنَّةِ : يا أهلَ الجَنَّة .

فيقولون : لبَّيْكَ وسَعْدَيك .

فيقولُ : هَلْ رضيتم ؟

فيقولون : وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا مِن خلقك ؟

فيقول : أنا أعطيكم أفضلَ مِن ذلك .

قالوا : يا ربِّ وأَيُّ شيءٍ أفضلُ مِن ذلك ؟

فيقولُ : أُحِلُّ عليكم رِضواني ، فلا أسخطُ عليكم بَعْدَهُ أبدًا».

وأخرجَهُ الإمامُ أحمدُ في«مُسندِه»(٣/ ٨٨)، ومسلم في«صحيحِه»(٢٨٢٩)، والتِّرمذيُّ في «جامعه»(٢٥٥٥).

فلا أدري في أَيِّ شجرةٍ يَعْتَقِدُ المُبطِلُونَ أنَّها خاطبتْهم في الجَنَّةِ ! أو أَيِّ كلامٍ أزليٍّ قد سَمِعُوه !

وأخرج البُخاريُّ في«صحيحه»(٣٢٠٩)، و(٦٠٤٠): عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ قال :«إذا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ ، نادى جبريلَ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ ، فيُحِبُّه جبريل» الحديثَ .

وأخرجَهُ الإمامُ أحمدُ في«مُسندِه»(٢/ ٥١٤)، ومسلمٌ في«صحيحِه»(٢٦٣٧)، والتِّرمذيُّ في «جامعِه»(٣١٦١)، ومالكٌ في«مُوطَّئِه»(١٧٧٨).

قال الحافظُ ابنُ حجر بَعْدَهُ في«فتح الباري»(١٣/ ٤٦٠):(وأثبتتِ الحنابلةُ أَنَّ اللهَ مُتكلِّمٌ بحَرْفٍ وصَوْتٍ . أَمَّا الحُرُوفُ : فللتَّصريحِ بها في ظاهر القُرآن . وأَمَّا الصَّوتُ : فمَنْ مَنَعَ قال : إِنَّ الصَّوتَ ، هو الهواءُ المُنقطِعُ المسموعُ مِن الحنجرة ! وأجابَ مَنْ أثبتَهُ بأَنَّ الصَّوتَ الموصوفَ بذلك ، هو المعهودُ مِن الآدميِّينَ ، كالسَّمعِ والبصرِ ، وصفاتُ الرَّبِّ بخلاف ذلك ، فلا يَلْزَمُ المحذورُ

المذكورُ ، مع اعتقاد التَّنزيه ، وعدم التَّشبيه ، وأنَّه يجوزُ أَنْ يكونَ مِن غَيرِ الحنجرة ، فلا يلزمُ التَّشبيه .

وقد قال عَبْدُ اللهِ بنُ أحمد بن حنبل في«كتاب السُّنَّة»:«سألتُ أبي عن قومٍ يقولون : لَمَّا كلَّمَ اللهُ مُوسَى لم يتكلَّمْ بصَوْتٍ . فقال أبي : بل تكلَّمَ بصَوْتٍ ، هذِه الأحاديثُ تُروَى كما جاءتْ» ، وذَكَرَ حديثَ ابنِ مَسْعُودٍ وغَيرِه) اهـ .

وأخرجَ عَبْدُ اللهِ بنُ الإمام أحمد في«السُّنَّة»(١/ ٢٨١)(٥٤٣): أنَّ أباهُ ذَكَرَ حديثَ ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه :«إذا تكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالوحي ، سُمِعَ لَهُ صَوْتٌ كَجَرِّ السِّلسِلةِ على الصَّفوان» ثُمَّ قال : (هذا الجهميَّةُ تُنكِرُه . هَؤُلاءِ كُفَّارٌ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُمَوِّهُوا على النَّاس ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يتكلَّمْ ، فهو كافرٌ ، إلَّا أَنَّا نروي هذِه الأحاديثَ كما جاءَتْ).

وحديثُ مَسْروق عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه السَّابقُ ، رواه الأئمَّةُ : سُفيانُ الثَّوريُّ في «تفسيرِه»(٧٨٢)، والبُخاريُّ في«خَلْق أفعال العباد»(٤٨٢)، و(٤٨٣)، وعَبْدُ اللهِ بنُ أحمد في«السُّنَّة» (٥٣٦)، و(٥٣٧)، والدَّارميُّ في«الرَّدِّ على الجهميَّة»(٣٠٨)، وابنُ أبي حاتم في«الرَّدِّ على الجهميَّة» («فتح الباري» ١٣/ ٤٥٦)، وابنُ خُزيمةَ في«التَّوحيد»(٢٠٨)، و(٢٠٩)، و(٢١٠)، و(٢١١)، وابنُ جَرير في«تفسيرِه»(١٩/ ٢٧٧)، وأبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في«العَظَمَة»(١٤٤)، وأبو بكْرٍ النَّجَّادُ في«الرَّدِّ على مَنْ يقول القُرآن مخلوق»(٥)، و(٦)، وابنُ بطَّةَ في«الإبانة»(١٦ -الرَّدِّ على الجهميَّة)، واللَّالكائيُّ في«السُّنَّة»(٥٤٩)، والبَيْهقيُّ في«الأسماء والصِّفات»(٤٣٢).

ورواه عنه رضي الله عنه مَرْفوعًا : أبو داوود في«سُنَنِه»(٤٧٣٨)، وابنُ أبي حاتم في«الرَّدِّ على الجهميَّة»(«فتح الباري» ١٣/ ٤٥٦)، وابنُ خُزيمة في«التَّوحيد»(٢٠٧)، والآجُرِّيُّ في«الشَّريعة» (٦٦٩)، وابنُ حِبَّان في«صحيحِه»(٣٧)، وابنُ بطَّةَ في«الإبانة»(١٢و١٣و١٤و١٥- الرَّدِّ على الجهميَّة)، واللَّالكائيُّ في«السُّنَّة»(٥٤٧)، و(٥٤٨)، والبَيْهقيُّ في«الأسماءِ والصِّفات»(٤٣٣)، و(٤٣٤).

قال الدَّارقطنيُّ في«العِلَل»(٢/ ٤٤٢-٤٤٣)(٨٥٢):(والموقوفُ هُوَ المحفوظ).

وبوَّبَ البُخاريُّ في«صحيحِه» على الأحاديث السَّابقة في«كتاب التَّوحيد» وغَيرِه عدَّةَ أبواب، منها :

بابُ كلامِ الرَّبِّ مع جبريل ، ونداء اللهِ الملائكة .

بابُ كلامِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ مع الأنبياء وغَيرِهم .

بابُ كلامِ الرَّبِّ مع أهلِ الجنَّة .

فالأئمَّةُ كُلُّهم ، وحُفَّاظُ الحديث ، مائلون للتَّشبيهِ والتَّجسيم ، كمَيْلِ ابنِ بطَّةَ نفسِه رضي الله عنهم ، مُتَّهمون فيما رووه ، إِذْ حوى ما يُخالِفُ عقائدَ المُتكلِّمِينَ الفاسدة ، ونقضَ أُصُولَهم الفلسفيَّةَ الكاسدة .

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة (ت٧٢٨هـ):(وليس في الأئمَّةِ مَنْ قال «إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بصَوْتٍ» ، بل قد ثَبَتَ عن غَيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ والأئمَّةِ ، أَنَّ اللهَ يتكلَّمُ بصَوْتٍ . وجاءَ في ذلك آثارٌ مشهورةٌ عن السَّلَفِ والأئمَّة ، وكان السَّلَفُ يذكرون الآثارَ الَّتي فيها ذِكْرُ تَكَلُّمِ اللهِ بصَوْتٍ ، ولا يُنْكِرُهَا منهم أَحَد) ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَها رحمه الله ، «مجموع الفتاوى»(٦/ ٥٢٧).

وقال :(واستفاضتِ الآثارُ عن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعِينَ ومَنْ بَعْدَهم مِن أئمَّة السُّنَّة ، أَنَّهُ سُبحانه يُنادِي بصَوْتٍ : نادَى مُوسَى ، ويُنادِي عبادَهُ يَومَ القيامةِ بصَوْتٍ ، ويتكلَّمُ بالوحي بصَوْتٍ ، ولم يُنْقَلْ عن أحدٍ مِن السَّلفِ أَنَّهُ قال :«إنَّ اللهَ يتكلَّمُ بلا صَوْتٍ ، أو بلا حَرْفٍ» ، ولا أَنَّهُ أنكر أَنْ يتكلَّمَ اللهُ بصَوْتٍ أو حَرْفٍ)«مجموع الفتاوى»(١٢/ ٣٠٤).

وسأل عَبْدُ اللهِ بنُ الإمام أحمد أباه عن قَوْمٍ يزعمون أَنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بصَوْتٍ ، فقال :«يا بُنَيَّ هؤلاءِ جهميَّةٌ زنادقةٌ ، إنَّما يدورون على التَّعطيل» ، نقلَهُ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة ، كما في«مجموع الفتاوى»(١٢/ ٣٦٨).

وقال قوامُ السُّنَّةِ أبو القاسم إسماعيلُ بنُ محمَّد التَّيميُّ الأصبهانيُّ (ت٥٣٥هـ)، إمامُ الشَّافعيَّةِ في وقتِه رحمه الله في كتابِه «الحُجَّة»(١/ ٣٣٢):(ذَكَرَ صالحُ بنُ أحمد بن حَنْبل ، وحَنْبلٌ : أَنَّ أحمد رحمه الله قال :«جبريلُ سَمِعَهُ مِن اللهِ تعالى ، والنَّبيُّ ﷺ سَمِعَهُ مِن جبريل ، والصَّحابةُ سَمِعَتْهُ مِن النَّبيِّ ﷺ »).

وقال أبو الحَسَنِ محمَّدُ بنُ عبد الملك الكَرَجيُّ (ت٥٣٢هـ)، الإمامُ الشَّافعيُّ العَظِيمُ رحمه الله ، في كتابه «الفُصُول في الأُصُول»:(سَمِعْتُ الإمامَ أبا منصور محمَّد بن أحمد يقول : سَمِعْتُ أبا حامد الإسفرائيني يقول :«مذهبي ، ومذهبُ الشَّافعيِّ ، وفقهاءِ الأمصار : أَنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ غَيرُ مخلوقٍ ، ومَنْ قال مخلوقٌ فَهُوَ كافر . والقرآنُ حَمَلَهُ جبريلُ مَسْموعًا مِن اللهِ ، والنَّبيُّ ﷺ سَمِعَهُ مِن جبريلَ ، والصَّحابةُ سَمِعُوهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ). نقلَهُ عنه شَيخُ الإسلام كما في«مجموع الفتاوى»(١٢/ ٣٠٦).

ونصَّ شَيخُ الإسلامِ كما في«مجموع الفتاوى»(١٢/ ٥٨٢): أَنَّ مذهبَ سلف الأُمَّة وأئمَّتِها ، أَنَّ

القُرآنَ كلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيرُ مخلوقٍ ، سَمِعَهُ جبريلُ مِن اللهِ جلَّ وعلا ، وسَمِعَهُ النَّبيُّ ﷺ مِن جبريل ، وسَمِعَهُ المُسلمون مِن النَّبيِّ ﷺ . وأَدِلَّةُ هذا كثيرةٌ مِن الكتاب والسُّنَّة والإجماع .

وقال (١٢/ ٥٨٤):(واللهُ تكلَّمَ بالقُرآنِ بحُرُوفِهِ ومعانيهِ ، بصَوْتِ نَفْسِه ، ونادى مُوسَى بصَوْتِ نَفسِه ، كما ثبتَ بالكتاب والسُّنَّةِ وإجماع السَّلَف . وصَوتُ العَبْدِ ليس هو صَوْتَ الرَّبِّ ، ولا مِثلَ صَوتِه ، فَإِنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيء ، لا في ذاتِهِ ، ولا في صفاتِه ، ولا في أفعالِه . وقد نَصَّ أئمَّةُ الإسلام – أحمدُ ومَنْ قَبْلَهُ مِن الأئمَّةِ – على ما نَطَقَ به الكتابُ والسُّنَّةُ ، مِن أَنَّ اللهَ يُنادِي بصَوْتٍ ، وأَنَّ القُرآنَ كلامُهُ ، تكلَّمَ به بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، ليس منه شيءٌ كلامًا لغَيرِه ، لا جبريلَ ولا غَيرِه ، وأَنَّ العبادَ يقرؤونَهُ بأصواتِ أنفسِهم وأفعالهم ، فالصَّوتُ المسموعُ مِن العَبْدِ ، صَوْتُ القارئ ، والكلامُ كلامُ البارئ).

ثُمَّ قال (١٢/ ٥٩٨):(والصَّوابُ في هذا البابِ وغَيرِه ، مذهبُ سَلَفِ الأُمَّةِ وأئمَّتِها ، أَنَّهُ سبحانه لم يَزَلْ مُتكلِّمًا إذا شاءَ ، وأَنَّهُ يتكلَّمُ بمشيئتِه وقدرتِه ، وأَنَّ كلماتِه لا نهايةَ لها ، وأَنَّهُ نادى مُوسَى بصَوْتٍ سَمِعَهُ مُوسَى ، وإنَّما ناداهُ حِينَ أتى ، لم يُنادِهِ قَبْلَ ذلك ، وأَنَّ صَوتَ الرَّبِّ لا يُماثِلُ أصواتَ العبادِ ، كما أَنَّ عِلْمَهُ لا يُماثِلُ عِلْمَهم ، وقدرتَهُ لا تماثِلُ قُدرتَهم ، وأَنَّهُ سُبحانَهُ بائنٌ عن مخلوقاتِهِ بذاتِهِ وصفاتِه ، ليس في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِهِ وصفاتِه القائمةِ بذاتِه ، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه) اهـ .

أَمَّا حُكمُ هؤلاءِ الأئمَّةِ عند أولئك الأشاعرة ، ومَنِ اعتقدَ عقائدَهم : فهو التَّضليلُ والتَّبديعُ والتَّكفير ، قال الخطيبُ محمَّدُ بنُ إبراهيم الحمويُّ :(مَنْ قال إنَّ اللهَ مُتكلِّمٌ بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، فقد قال قولا يلزم منه أَنَّ اللهَ جِسْمٌ . ومَنْ قال إِنَّهُ جسمٌ ، فقد قال بحُدُوثِهِ . ومَنْ قال بحُدُوثِه فقد كفر ، والكافرُ لا تَصِحُّ ولايتُهُ ، ولا تُقبَلُ شهادتُهُ). نقلَهُ الكوثريُّ ضمن فتاوى عدَّة في الباب نفسِه لجماعةٍ ، في حاشيته على «السَّيف الصَّقِيل» للسُّبكيّ (ص٤٤)، نُصحًا منه بزعمه للأُمَّةِ ، لِئَلَّا تَضِلَّ ولا تَشْقَى !

فانظرْ إلى ما اعتمدَهُ هؤلاءِ في تكفير أئمَّةِ الإسلام ، وعلى ما بَنَوْه !

السَّابعة : أَنَّ استعظامَهم لرواية ابنِ بطَّة ، وقشعريرة جُلُودِهم منه ، مُخالِفٌ لحقيقةِ عقائدِهم ، مُكَذِّبٌ لها !

○ فَإِنْ كانوا يُجْرُونَ نصوصَ الصِّفاتِ مِن الكتاب والسُّنَّة على ظاهرِها ، ولا يُعْمِلُونَ فيها تأويل الجهميَّة وأذنابِها : فلَنْ يكونَ تكليمُ اللهِ لموسى حقيقةً بحَرْفٍ وصَوْتٍ – الثَّابتُ في الكتابِ والسُّنَّةِ – مُصِيبًا لهم بالاستعظام ، إِذْ هو أَمْرٌ مُستقِرٌّ ثابتٌ .

○ وإنْ كان ظاهرُ نصوص الوحيَيْنِ في الصِّفات ، ليس على وَجْهه ، وأَنَّ لها تأويلاً صارفًا لها عن ظواهرِها : فحَدِيثُ ابنِ بطَّةَ منها ! وقد نقلوا عن الماتريديَّةِ وغيرِهم دُونَ نكيرٍ ، أَنَّهم زعموا أَنَّ مُوسَى سَمِعَ كلامًا بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، لكنَّهُ مخلوقٌ في الشَّجرة ! فَلْيَكُنْ هذا كَهَذا !

وهُمْ يُنْشِدُونَ عند كُلِّ صِفَةٍ إلاهيَّةٍ ، يَسْمعونها في كتابِ اللهِ ، أو سُنَّةِ نبيِّـهِ ﷺ بَيْـتَ إبـراهيم اللَّقَانِيّ (ت١٠٤١هـ) في«جوهرة التَّوحيد»:

وَ كُـلُّ نَـصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِـيْهَـا أَوِّلْـهُ ، أَوْ فَوِّضْ ، وَرُمْ تَـنْزِيْهَـا

الثَّامنة : أَنَّ استعظامَهم هذا أيضًا ، مُبْطِلٌ لأَصْلٍ عَقَدِيٍّ آخرَ لهـم ، فـإنَّهم لا يقبلـون أخبـارَ الآحادِ في الاعتقـادِ أصـلاً ، ويردُّونَهـا ، ولا يجعلونهـا مُـستندًا ، ولا تُفِيْـدُ العِلْـمَ ! غَـيرَ أحاديـثِ الصَّحيحَيْنِ عِندَ طائفةٍ منهم ، لتلقِّي الأُمَّةِ لها بالقَبُول ، فيُجْرُونَ عليها التَّأويلاتِ والمجازاتِ ، كسائر آياتِ الصِّفات ، فكيف تقشعرُّ جُلُودُهم مِن حديثٍ آحاديٍّ ضعيفٍ ، زَادَ ابنُ بطَّةَ فيه لفظًا أو لم يَزِد !

قال عَبْدُ القاهر البغداديُّ (ت٤٢٩هـ) في«أُصُول الدِّين»(ص١٢):(وأخبارُ الآحادِ متى صحَّ إسنادُها ، وكانتْ متونُها غَيرَ مُستحيلةٍ في العقل ، كانتْ مُوجِبَةً للعَمَل بها دُونَ العِلْم ، وكانتْ بمنزلة شهادة العُدُولِ عند الحاكم ، يلزمُه الحُكْمُ بها في الظَّاهرِ ، وإنْ لم يَعْلَمْ صِدْقَهم في الشَّهادة) اهـ .

فهذا حَالُ الأحاديثِ الآحاديَّةِ الصَّحيحةِ عندهم ، تُوجِبُ العَمَلَ بها في العبـادات والمعـاملات ، لكنَّها لا تُفِيدُ العِلْمَ ! فلا يُبْنَى عليها اعتقادٌ مُطلقًا !

التَّاسعة : لو أَن ابنَ بطَّة رحمه الله أرادَ تحريفَ هذا الحديثِ ، لتأييدِ مذهبِه ، لأخـرجَ الـشَّجرةَ منه ، لِئَلَّا يجدوا مُتعلَّقًا بها ، فيُعطِّلوا الصِّفةَ بمزاعمِهم فيها ، فإنَّ تعلُّقَهم بها قَدِيمٌ مَعْروف .

العاشرة : أَنَّ جهلَهم بالأحاديثِ النَّبويَّة ، والآثارِ السَّلفيَّة ، وكلامِ أئمَّة التَّفسير في آيات كلام اللهِ جلَّ وعلا لموسى عليه السَّلام وغَيرِه ، قد جعلَهم يظنُّونَ حاجةَ ابـنِ بطَّـةَ ، لاخـتلاقِ زيـادةٍ في حديثٍ مُطَّرَحٍ ضعيفٍ ، لِيُقرِّرَ مذهبَ السَّلف ! وما علموا أَنَّ أَدِلَّةَ ذلك ، أعظمُ وأصحُّ وأكثرُ ، مِن أَنْ يكونَ طريقُها ، حديثٌ رَوَاهُ ضعيف ، وقد سُقنا جُملةً منها .

الحادية عشرة : أَنَّهم ما زالوا يكذبون علينا ، ويُنفِّرُونَ – زُورًا – مِنَّا ، جَهْـلاً تـارة ، وتلبيـسًا تارات ، فيزعمون ، أَنَّنا – لاعتقادِنا السَّابقِ في كلام اللهِ ، وأنَّه بحَرْفٍ وصَوْتٍ – نقـولُ بـأَنَّ أوراق

المصحف قديمةٌ غَيرُ مخلوقةٍ ! وأَنَّ مدادَهُ مثلُه ! وأَنَّ أصواتَ العبادِ بكلامِ اللهِ غَيرُ مخلوقةٍ ! إلى غير ذلك مما يزعمونه ويفترونه .

ولا دليلَ لهم عليه ، ولا مُستندَ ولا بيِّنةٍ ، إِلَّا وحيُ الشَّياطين ، ولوازمُ المتكلِّمين .

فإذا وجدوا لإمامٍ عظيمٍ مَنْعًا مِن قَوْلِ المُتكلِّمِ (لفظي بالقُرآنِ مخلوقٌ)، أو (لفظي بالقُرآنِ غَيرُ مخلوق): فَرِحُوا به ، وحمَّلُوهُ ما لا يحتمل ، وجعلوه مُستندَ تلك المزاعم الكاذبة !

ونَحنُ نقولُ : إِنَّ أوراقَ المصحف ، ومدادَهُ ، وصَوْتَ القارئ ، كُلُّها مخلوقةٌ ، يُصِيبُها البِلى أو الموت ، واللهُ جلَّ وعلا بصفاتِه حيٌّ عظيمٌ لا يموت . إِلَّا أَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ جلَّ وعلا ، وكلامُه سبحانه غَيرُ مخلوقٍ ، تكلَّمَ به حقًّا ، بحَرْفٍ وصَوْتٍ ، سَمِعَهُ منه جبريلُ ، وبلَّغَهُ جبريلُ لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ .

وما زَالَ يتكلَّمُ سبحانه متى شاءَ ، بما يشاءُ ، كَلَّمَ مُوسَى عليه السَّلام ، ويُكلِّمُ المؤمنين في الجَنَّة ، ويُحَاسِبُ العباد . فالصَّوتُ بالقُرآنِ صَوتُ القارئ ، والكلامُ كلامُ البارئ .

ونضربُ لذا مثلاً يُوضِّحُه : كتابةُ الكاتبِ (الله) على ورقةٍ بمدادٍ ، ثُمَّ قراءتُه لها . فكتابتُهُ مخلوقةٌ ، والأوراقُ مخلوقةٌ ، والمدادُ مخلوقٌ ، وصوتُه بهِ حِينَ يقرأُه مخلوقٌ ، واللهُ جلَّ وعلا خالقٌ عظيمٌ غَيرُ مخلوقٍ ، تقدَّسَ جلالُه ، وعزَّ سُلطانُه .

ومثلُ هذا ، كلامُه سبحانه ، فهو صفتُه العَلِيَّة ، وصفاتُه مِثلُه جلَّ وعلا ، غَيرُ مخلوقة .

أَمَّا إنكارُ بعض الأئمَّة أَنْ يُقالَ (لفظي بالقُرآنِ مخلوق)، أو (ليس لفظي بالقُرآنِ مخلوق): فلأَنَّ كُلَّ عبارةٍ منها ، لها وَجْهٌ باطلٌ خَبيثٌ ، تقولُ به المعتزلة ، وشاع حينذاك ، ولها وَجْهٌ صحيح .

فرُبَّما أظهر المُتكلِّمُ كَذِبًا ، أَنَّهُ يُريدُ الوَجْهَ الصَّحيحَ ، وهو يُريدُ تقريرَ الوَجْهِ الباطل ! فيجعلَ إقرارَ الأئمَّةِ له ، ظنًّا منهم أَنَّهُ أراد الوَجْهَ الصَّحيحَ ، دَلِيلاً على صحَّةِ ذلك الوَجْهِ الخبيث .

فقَوْلُ (لفظي بالقُرآن مخلوقٌ):

○ حَقٌّ ، إِنْ أرادَ أفعالَ العبادِ ، وأَنَّ فِعلَ العَبْدِ ، وصوتَهُ ، مخلوقةٌ للهِ جلَّ وعلا ، خِلافًا لزعم المعتزلة ، القائلين بخَلْقِ العبادِ أفعالَهم .

○ وباطلٌ وكُفرٌ ، إِنْ أراد أَنَّ القُرآنَ نفسَهُ مخلوقٌ ، كما تقولُه المعتزلةُ وأذنابُهم .

وقَولُ (لفظي بالقُرآنِ غَيرُ مخلوقٍ):

○ حَقٌّ ، إِنْ أراد أَنَّ كلامَ اللهِ جلَّ وعلا غَيرُ مخلوقٍ .

○ وباطلٌ ، إِنْ أرادَ أَنَّ أفعالَهُ ليستْ مخلوقةً ، وإِنَّما الإنسانُ يَخْلُقُ فِعلَ نفسِه ، كما تقولُهُ المعتزلة .

فلَمَّا كان هذا هو الحال : بَدَّعَ الأئمَّةُ وضلَّلُوا مَنْ أطلق تلك العبارات ، سَدًّا للباب ، وقَطْعًا لذريعةِ أهل الزَّيغِ والأهواء ، ففِيهِ مِن الألفاظِ الدَّالَّةِ على المراد ، ما لا يَطْرُقُه الاشتراكُ والاحتمالُ ، فالانصرافُ عنه غَيرُ محمود .

الثَّانية عشرة : أَنَّ موازينَهم العقليَّةَ الفاسدةَ ، التي يُحاكِمُونَ إليها الوحيَ ، فيُنْكِرُونَ حديثًا ، ويطعنون في آخرَ لمخالفتِه لها ، وما قَبِلُوهُ فلظنِّهم مُوافقتَهُ لما يعتقدون : لا قيمةَ لها ، ولا حُجَّةَ فيها ، ولا مُستندَ عليها . وهي منقوضةٌ بالوحي رأسًا على عقب ، مُطَّرَحةٌ مُلقاةٌ . لم يَضعْ أُصولَها إِلَّا ملاحدةُ الفلاسفة ، لا يُؤمنون بوحيٍ ، ولا رسالةٍ ، ولا نبوَّةٍ ، ولا شريعةٍ .

ومَنْ رأى كُتُبَ المتكلِّمين ، وجدَها مليئةً بالمقاييس العقليَّة المزعومة ، يبنون عليها أُصولَ الدِّين ، ويُقرِّرُونَ بها وحدانيَّة ربِّ العالمين ، وما يجوزُ عليه ويمتنع . ولا يستدلُّون بالوَحْي مِن كتابِ الله ، أو سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، إِلَّا ما ظنُّوا ظاهرَهُ مُوافِقًا لذلك ، فيجعلونَهُ عاضدًا ، لا مُعتمدًا ومُستندًا .

أَمَّا كتبُ أهلِ السُّنَّةِ ، أئمَّةِ الإسلام وحُفَّاظِه : فكتبُهم مَلِيئةٌ وإِنْ صَغُرَتْ أحجامُها ، بكلامِ اللهِ جلَّ وعلا ، وكلامِ رَسُولِهِ ﷺ ، وكلامِ أئمَّة الإسلام ، جِيْلاً فجِيْلاً ، وطبقةً فطبقةً ، عليها مِن نُورِ النُّبوَّةِ أتمُّ نُورٍ ، ومِن عظمةِ الوحي وجلالِه ، أكملُ عظمةٍ وأزهى جَلال .

تُفِيدُ المؤمنين اليَقِينَ القطعيَّ بكُلِّ اعتقادٍ جاءَ بِهِ الوحيُ ، فهم فيه متآلفون ، يُوافِقُ أقصاهم أدناهم ، ويُؤَيِّدُ مُتأخِّرُهم مُتقدِّمَهم ، لا يختلفون في ذلك في شيء .

أَمَّا أهلُ الأهواءِ وسائرُ المُتكلِّمين : فكتبُهم تسلبُ اليَقِينَ والإيمانَ ، وتُورِثُ الشَّكَّ والزَّيغَ والنِّفاق والخذلان ، لا يستطيعُ أكبرُهم أَنْ يقطعَ بجَزْمٍ بشيء ، فهم يُورِدُونَ الاحتمالاتِ العقليَّةَ المزعومةَ ، والصَّارفاتِ للوحيِّ المسمومة ، على القاصرين المخذولين ، ويدعونَهم بَعْدَها غيرَ جازمين بشيء ، يُرجِّحُونَ شيئًا بغَيرِ مُرجِّحٍ ، فينقلبُ بعد زَمَنٍ مَرْجوحًا .

ألا ترى الرَّازيَّ ينفي قاطعًا اعتقادَ المؤمنين في حقيقة كلامِ اللهِ ، وحين أراد تقريرَ ما يراه حَقًّا عَجِزَ ، وقال على وَجْهِ الظَّنِّ والتَّردُّد :(فكذلك لا يَبْعُدُ سماعُ كلامِه) أي لا يَبْعُدُ سماعُ مُوسَى كلامَ اللهِ الأزليَّ !

وإِنْ كان هؤلاءِ أشعريَّةً حقَّة ، فَلْيَأْخُذوا بقَوْلِ إمامِهم أبي الحَسَن الأشعريِّ (ت٣٢٤هـ) رحمه الله ، ونصيحتِه ووصيَّتِه ، قال رحمه الله في «الإبانة»:(قولُنا الَّـذي بـهِ نقـولُ ، وديانتُنـا التـي نَـدِينُ بهـا : التَّمسُّكُ بكتابِ اللهِ ، وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ ، وما رُوِيَ عن الصَّحابةِ والتَّابعين وأئمَّة الحديث .

ونَحنُ بذلك مُعتصمون ، وبما كان عليه أحمدُ بـنُ حَنْبـل نـضَّرَ اللهُ وَجْهَـهُ ، ورفـعَ درجتَـه ، وأجزلَ مثوبتَه قائلون ، ولمن خالفَ قَوْلُه قَوْلَه مُجانبون ، لأَنَّهُ الإمامُ الفاضـل ، والـرَّئِيسُ الكامـل ، الَّذي أبان اللهُ به الحقَّ عند ظهور الضَّلَال ، وأوضحَ به المنهاج ، وقَمَعَ بـهِ بدعـة المبتـدعين ، وزَيْـغَ الزَّائغين ، وشَكَّ الشَّاكِّين ، فرحمةُ اللهِ عليه مِن إمامٍ مُقدَّمٍ ، وكبيرٍ مُفَهَّمٍ ، وعلى جميع أئمَّة المسلمين).

نقلَهُ عنه ابنُ عساكر في«تبيين كذب المفتري»(ص١٥٧-١٥٨)، وهو في«الإبانـة»(ص ٧٠-٧١ ، ت د. فوقيَّة حُسين محمود).

فها هي أقوالُ أحمدَ ونصوصُه صريحةٌ واضحةٌ ، وها هو اعتقادُه رضي الله عنه ، ليس فيهِ شيءٌ يُنْكَرُ ، نقلَهُ عنه أصحابُه وغيرُهم مِن كُلِّ مذهبٍ ، قد أجمعتْ أئمَّةُ الإسلامِ عليه ، ودانتْ به ، ودعتْ إليه .

أصلحَ اللهُ شأن المسلمين ، وهداني وضالَّهم إلى صراطِه المستقيم ، ونهجِـه القـويم ، وغفـرَ لي وللمؤمنين ، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ ، وعلى آله وصحبِه أجمعين .

كتـبه

عَبْد العزيز بن فيصل الرَّاجحي

الرِّياض

فجر السَّبت ١٥ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ